

اللذة الصاخبة

في « أفاعى الفردوس » لأبي شبكة

١

من المعروف أن شعرنا العربي القديم مليء بما يصور اللذة والمجون منذ عصره الجاهلي ، فنحن في هذا العصر نقرأ عند طرفة والأعشى وامرئ القيس أشعارا في المرأة والرجل ونزعاتهما الجسدية وتفتح هذه النزعات ، وهى أشعار نفّسوا بها عن الحسية ، وتحرروا فيها من كل التزام ، وخاصة من حيث وصف المرأة وأعضائها وثمرتها الجسمية .

وخفت هذا الصوت في العصر الإسلامي تحت تأثير الدين الجديد ، فلما كان العصر العباسي ارتفع الصوت بأقوى مما كان مرتفعا في عصر الوثنية ، وكان للهوالى والجوارى الأثر الأول في ارتفاعه ، إذ انتشرت في الحياة الاجتماعية خلقية جديدة . ولم يلبث أن ظهر بشار . وكان ضريرا ، وعمد عمدا إلى تصوير الغرائز الجنسية في الرجل والمرأة جميعاً ، ومن مشهور شعره قوله :

لا يُؤَيِّسَنَّكَ من مخدّرةٍ قولٌ تغلّظهُ وإن جرّحاً
عُسرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصعبُ يمكن بعد ما جمّحاً

وخلفه أبو نواس وجماعته من مثل الحسين بن الضحاك ، فزادوا في الطنبور نغمات ، وأضافوا إلى المرأة والغزل بها الغزل بالغلان ، وأحفشوا في ذلك وبالغوا في تهيج كامن الشهوات ، بل قل إنهم أضرموا نار الغرائز الجسدية إضراما ، وأشعلوها في نفوس معاصريهم إشعالا . ثم خلف من بعدهم ابن حجاج وابن سكرة في العراق وابن سناء الملك في مصر وابن قزمان

في الأندلس فأمدوا هذه النار بوقود لا ينفد ، وسرت حرارتها في كيان المجتمع العربي كله .

وكان يلبح شررها في عصرنا الحديث على لسان حافظ والرصافي وأضرابهما ، غير أنهم لم يسجلوه في دواوينهم ، لأن الدواوين أصبحت تنشرها المطابع ، وتذيع في كل مكان . فاستحيا الشعراء أن يقرأ لهم الناس شعرا ينفث الغواية والفجور .

ومع أننا لا نرتضى الإسفاف بالغرائز فإننا نرى أن ينشر الشعراء شعرهم سواء منه الطاهر العفيف والماجن المفحش ، حتى لا تكون حياة الشاعر ذات وجهين ، وجه صناعي يُعرّض للضوء ويراه الناس جميعاً ، ووجه طبيعي تستره الظلال ، فلا يراه إلا أنظار الأصدقاء والأصحاب .

وليس بصحيح أن قراءة مثل هذا الشعر تغري بالفحش والفجور دائماً ، فقد تكون مطهرة لبعض الناس كمن يداوون السموم بالسموم ، أو كمن يستغيثون على مرض بتطعيم الجمهور منه ، كما نعرف في الجُدري . فهذا الاتجاه قد يداوى رغبة مكظومة في بعض الناس ، وقد يساعدهم على التخلص من عفن جسدي أصابهم . وفي الأدب الغربي نماذج من هذا الأدب ، وخاصة في باب القصة ، إذ يصورون الشهوات الجنسية وما تنهش من قاب أصحابها ، ويتعرضون للمرأة ، فلا يتخرجون ، ويصورون ما يعتلج في جسدها من هذه الغريزة الضارية ، ورواية لورانس : « عشيق ليدى تشاترلى » مثال خسيس لهذه النزعة ، وفيها تنصهر الدعارة على الزوجية ورواية « يوليس » لجيمس جويس مثال خسيس آخر . ومن الغربيين من اتخذ العهر والفحش مذهباً له آمن به واعتقه ، وسيرة الشيطان الرجيم « بودلير » ذائعة معروفة ، وديوانه « أزهار الشر » كأنه دار من دور الفجور ملئت بالفواحش والمخازي .

و ديوان « أفاعى الفردوس » لإلياس أبى شبكة تصوير هو الآخر لهذه الناحية الوضيعة فى الإنسان ، ناحية اللذة الجسدية الصارخة ، وقد بدأ فى نظمه سنة ١٩٢٨ وانتهى منه سنة ١٩٣٨ أى قبل وفاته بنحو تسع سنين . وهو فيه يحاول أن يصوّر نار الفحش التى تتأطى فى جسد العاهر من رأسها إلى أخمص قدميها ، واختار لذلك مواقف فاجرة ، سيطرت فيها الشهوة الجسدية على المرأة فأفقدتها توازنها ، وأسقطتها من قمة الشرف والطهارة إلى درك الدعارة . وقصيدته « الأفعى » من خير الأمثلة لبيان هذا الاستعراق الجسدى الجنونى ، وهو فيها يعرض زوجة تستهين بالصلة الزوجية المقدسة ، بل تدوسها وتطؤها تحت قدميها وطئاً ، هاربة من سياجها إلى ساحة الشهوة العارمة ، وإنها لتحمل ابنها فوق صدرها ، بل إنها لتلقيه محولة ثديها من فمه إلى فم الحبيب ، راکعة تحت قدميه . يقول موجهاً حديثه إليها :

أقول لها أعراقُ زوجك لم تزل وفى قلبه عطفُ الأبوة لم يبرأ
ولم يبرأ إحساسُ الرجال بصدوره

فحبك يجرى منه فى الجهة اليسرى
أقول لها ثوب العفاف تذكرى فى ساعة الإكليل لم يك منبراً
لبست رداء العرس أبيض ناصحاً
فمن أين جاءت هذه اللطخة الحمر

ويتحدث عن ندمها ، وسرعان ما يعود إلى الشيطان الذى أغواها ، وأخرجها من فردوس البراءة والشرف إلى جحيم المتاع الجنسي ، ذلك الجحيم الذى أضرم فى جسمها نار الشهوة ، وهى نار لن تخبأ ولن تهدأ إلا أن ترتقى فى أحضان شيطانها الآثم الذى وهبت له جسمها . وقد تحول إليه أبو شبكة ، يقول :

ستملكها ما شئتَ بعد فلا تخفْ

وتمتصها حتى تصيرها قشرا

ستحفر مصقولَ الرخام بحسمها شفاهاك حتى تبرز الأعظم الصفرا

ستمزج بالسّم الذّم عاف دماءها لتجعلها للهوت مصلا فيجترا

وترمى بها في حمأة الويل والخنا سُقاطة عار تلهم الخوف والذعرا

أجل سيراك الليل بعد تضمّمها ويبصر كالمصباح تعصرها عصرا

وسوف ترى فيك المآثم نعيمة قد التصقت في بطنها حيّة سمرا

ستملكها ما شئتَ بعد فلا تخفْ فإن ابنها لما يزل يحمل الأما

صغير برى العين يرضى بلحبة

فيرقد مغبوطا بذى الهبة الكبرى

ينام ولا يدرى بأن سخافة تلهي بها كانت لموبقة سعرا

فالشيطان قد اشترى العروس بلعبة من لعب السوق أهداها إلى طفلها،

والطفل يلهو بها ، ولا يعلم من أمرها شيئا ، وأنها باعت نفسها هذا البيع

الرخيص بدمية تافهة . فياللائم واللوذر ! لقد انتصرت الوضاعة على الشرف

والدعارة على الطهارة ، رتقوا من منزل الزوجية السعيد على من فيه .

وأفضى أبو شبكة يوما إلى نفسه ، وفكر في الشهوة الجنسية تندلع في

الرجل كما تندلع في المرأة ، وتعمق في فكره ، وما زال يتعمق حتى انتهى إلى

سراديب نفسه المظلمة ، فإذا هو في عتمة اللذة الجسدية ، وإذا بالأفنى

تقترب منه وتنفث سموها فيه ، فيصيح صيحته أو قصيدته التي سماها « الشهوة

الحراء » ويستهلها بقوله :

أطفئ ضياك وأظلم مثل إظلامي

وخلّني في كواييسى وأحلامي

فرب نيرة ياليل توقظني إلى العفاف فأنسى عبء آثامي

أَحْسُ في جسدِي شوقاً يَحْذِبُنِي ففِي دُمِي سَوْرَةٌ كَالخُرِّ فِي جَامِي
لَمْ يَبْقَ فِي جَفْنَتِي نَارٌ لَغَيْرِ هَوًى يودِي بِجَسْمِي كَمَا أودِي بِأَجْسَامِ
حُبِّي النقي كإيماني القديم مَضَى وَهَمُّ هَذِيئَةٍ بِهِ مِنْ بَعْضِ أَوْهَامِي
فَهُوَ قَدْ غَمَسَ يَدَهُ فِي الْحَوْضِ الدَّنَسِ ، بَلْ غَمَسَ جَسَدَهُ كُلَّهُ ، فَإِذَا هُوَ
يَضْطَرُّ بِالنَّارِ الَّتِي مَلَأَتْ صَدْرَ الْآمِنِ قَبْلَهُ حَرَارَةً وَظُمًا . وَإِنَّهُ الْآنَ لِيَخْشَى
أَنْ تَرْتَسِمَةَ عَفَافٍ ، إِنَّهُ مَحْمُومٌ بِالشَّهْوَةِ ، وَهُوَ يَهْدِي بِهَا هَذِيانَ الْوَالِهِ ،
وَيَلْتَفِتُ إِلَى صَاحِبَتِهِ ، فَيَقُولُ :

يَا حَسْرَةَ اللَّيْلِ كَمْ تَوَحِينٍ مِنْ حُلْمٍ
مَيِّتٌ لِقَلْبٍ بَغْيٌ أَخْتِ الْآمِ
أَوْ قَلْبِ أَرْمَلَةٍ جَارِ الزَّمَانِ عَلَى عَفَافِهَا فَأَمَاتَتْ قَلْبَهَا الظَّامِ
مَهْمَا يَكُنْ سَبَبُ اسْتِسْلَامِهَا : أَهْوًى

فِي النَّفْسِ أَمْ كَانَ إِنْقِاذًا لِأَيْتَامِ
فَلْتَقْضِ شَهْوَتَهَا حَتَّى يَهْدِمَهَا مَا كَانَ فِي صَدْرِهَا مِنْ عَهْرِهَا الدَّامِ
وَتَنْجِزَ الشَّهْوَةَ الْحَمْرَاءَ دَوْرَتَهَا فَيَمْسَحِي رَحِمًا مِنْ بَيْنِ أَرْحَامِ !
وَهِيَ إِمَّا بَغْيٌ مُحْتَرِفَةٌ ، وَإِمَّا أَرْمَلَةٌ ذَاتُ حَاجَةٍ ، وَهِيَ فِي الْحَالَيْنِ قَدْ ذَبَحَتْ
الطَّهْرَ النَّسَوِيَّ ذَبْحًا ، وَاسْتَسْلَمَتْ إِلَى مَا فِي صَدْرِهَا مِنْ لَهَيْبِ الْعَهْرِ ، فَأَصْبَحَتْ
مِنَ النَّسْرَةِ الْإِلَاقِيَّةِ تَتَفَجَّرُ الشَّهْوَةُ فِيهِنَّ مِنْ يَنْبُوعٍ فَائِرٍ عَلَى الدَّوَامِ . وَإِنَّهُ لَيَقْبَلُ
عَلَى هَذَا الْيَنْبُوعِ فِي لَهْفَةٍ :

هَاتِي مِنَ الْعَهْرِ أَشْكَالًا مَلَوْنَةً يَمُحُّ بِهَا بَعْضُنَا بَعْضًا وَنَنْهَدِمُ
وَانْعِاطِ الْهَوَى لَعْلَ عَصِيرًا مِنْ ثَمَارِ الشَّفَافِ وَالْأَكْبَادِ
أَوْ لَعْلَ الْآثَامِ تَشْرَبُ مِنَّا مَا تَبَقِيَ مِنْ طَهْرٍ مَاءِ الْعِمَادِ
فَهُوَ قَدْ اسْتَمْرَأَ الْهَوَى وَالْحُبَّ الْمَحْرَمَ ، وَأَصْبَحَ يَسِيْطُرُ عَلَى عَقْلِهِ الْبَاطِنُ
وَالظَّاهِرُ ، وَلَمْ يَمُدَّ فِي كَيَانِهِ شَيْءٌ مِنْ إِرَادَةٍ أَوْ تَعْقَلٍ ، يَخْلُصُهُ مِنْ تِلْكَ النَّزْوَةِ

والخطيئة الحقاء ، فمُهِرٌ صاحبة جذاب خلاب ، وهو يتلون ألوان الحرباء .
على أنه سرعان ما يعود إلى صوابه ، فيذكر أنها من نساء الطريق ، وأن الدنيا
من حولها تزخر بعشاقها فيقول :

إنا اتحدنا ليوم واحدٍ وغداً يأتي فيخلفني قومٌ بهم
سيحشقونك يوماً يغتمون به ما غادرتُ منك ساعاتٍ ليلهم
وسوف كنسَيْن ، يا أخت الدِّماء ، ففهم
كما نسيت على رغم الدماء في
عشرون قلباً شربت الحب من دمها

وما شبعتم ولم يشبعك شربُ دمي
إذن فسوف تظل النفس جائعةً حتى يحف دم في غلافها النهم
فهي شرهة ، لا يشبعها ولا يرويه أي حب مهما كان مترعاً بالسعادة ، فقد
سيطرت الشهوة بدمها ، وهي تريد أن تتذوق جميع متعها الحسية ؛ وهي لذلك
لن يسدَّ جوعها وظمأها عشرون ولا واحد وعشرون ، وما عشرون أو
واحد وعشرون وهي تعرف كيف تتقلب بين الرجال ، وكيف تتحول كل
يوم من رجل إلى رجل ، تساقيه الهوى الدنس وتشرب معه كأسه حتى
التمالة ؟ وستظل كذلك حتى تحطّم جسدها . ويتمثل أبو شبكة أنها سترجع
إليه بعد فوات الأوان ، بعد أن تصبح خراباً وأطلالاً :

سترجعين ولكن مثل آمل جوفاء مشلولة في جسمك البالي
سترجعين مدمّاة مشوّهة أدنى إلى الموت مني رغم أثقال
سترجعين كطيفٍ مرٍّ في حلمي ليلاً فذكرني في الحلم أهوال
سترجعين ولا أقصيك عن جسدي حتى تحلّ الليالي الحمر أوصالي
حتى يحل وباءُ الخلد في كبدي ويلحق العارُ من بعدى بأذيالي
فهو سيعطل ينتظرها ، وهي سترتد إليه ، ولكن بعد أن تأكل الشهوة

كل ما فيها من نضرة وجمال . وتصبح كالعود اليبس بل العود المحترق . ومع ذلك سيعود إليها بنفس الرغبة الجشعة الملحة التي لا تقاوم . على أنه لا يلبث أن يشور عليها لما مزقته من عفافه وطهره ، فيقول :

أَجَلْ سَتَذْكُرُ الْأَعْقَابَ وَالْحَتَّابَ

مَادَامَ فِي الْأَرْضِ مِنْ صَلْبِ الزَّانَا عَقِبُ

لا مثلها ذكر الإفرنج «لورهم» ولا كما ذكرت «عفراءها» العرب

بل مثلها ذكرت روما قبائحها في مقاتلي «مسلينا» وهي تضطرب

هذا هو الليل فاسق السم هاتفة لعل في الناس قوما بعد ما شربوا

وسرّحت يدك الصفراء فوق هوى يسيل في محجريه الجهد والتعب

وكأنه يريد بهذه الثورة أن يطهر نفسه من الرجس الذي علق به منها . وإياك أن تظن أن أبا شبكة يحكي هنا صورة حقيقية ، فهو في هذا كله ممثل يريد أن يعرض عليك صورة الشهوة الجنسية العارمة التي تلتفح وجوه كثير من الناس .

ووجهته الأولى المرأة ، فهو يريد أن يجسّم عهرها وفجورها ، وإذا كان قد ذكر نفسه معها في هذه القصيدة فلنكي يتم له النموذج الذي يريد أن يخلقه ، ولن تجده يقف في الديوان وقفة أخرى تشبه هذه الوقفة مع حيّة الفردوس ، حقا إنه رجع يغلى في قصيدته «القاذورة» واسمعه يقول :

حَلَمْتُ بِدُنْيَا لَيْتَهَا لَا تَبْدُدُ لَدَائِدَ أَحْلَامِي وَلَا كَانَ لِي غَدُ

وأوقظت مذعورا إلى شرها جسٍ كأنني روح في جُشَامٍ مُشَرَّدُ

فألقيت دنيا من فواجعها الوري على بابها لوح من الرق أسود

قرأت عليه أحرفا خطها اللظى يروك منها اثنان: سجنٌ مؤبَّدُ

فطوّفتُ في غمر من الليل والخنا يعربد والأرجاس ترغى وتزبد

وللحمى الغالى تشيش ورغوة كأن الوري مستنقع يتنهَّدُ

وأغمدتُ في صلب الدجَنَّةِ ناظري

وفي كل جفنٍ لي من الهدبِ مبردٌ
فأبصرتُ أطباقاً تُعمِّدُها يدُ
وأشاهدتُ في الأطباقِ مفسدةَ الوري

تمور بها الديدانُ سكرى تمرُّ بدُ
مقاذر تمشي في الحياة طروبةً
هم الناس في الدنيا تهاويلٌ حنطت
بكيثُ عليهم في جحيمي وعيسدوا
وما هذه الدنيا يذرى رمادها
لريح الفنا إلا جحيمٌ مرمَّدُ
تلاشت به النيران غير بقية
تشبُّ ، لها في شهوة الطين موقدُ
ففي طبقٍ مستنقعٍ في صقيعه
نمت حشراتٌ فاجراتٌ توقدُ
نساءٌ أقلَّتْ في الصدور مراضعا
على فمها الوردى للإثم موردُ
عواهر أفنتُ في الفجور شبابها
فما روحها إلا عجوزٌ تقودُ
مراضعها فطساء فهنى ضفادع
على ما بها من شهوة النار تُجلد

وهو هنا يشبه أن يكون واعظاً ، فهو ينظر إلى الدنيا وأهلها نظرة سوداء ،
وخاصة إلى ركن المرأة ، فهو يستبشع قذارتها الجنسية وقذارة البشر جميعاً ،
ويرى الناس كلهم يَرِدون هذا المستنقع ، بل هذا السجن المؤبد من الشهوة ،
وتهاقت المرأة عليه تهاقت الفراش على النار . ويتحدث عن أطباق أخرى
غير طبق المرأة ، وهي أطباق شريرة أيضاً ، تملؤها شياطين من الملوك
والسلاطين ، ولا يلبث أن يلتفت إلى نفسه ، فيتحدث عن النار النقية التي
تومض في عينيه ، وما أدهن به وجهه من زيت مطهر ، ويأسى أن يضل
طريقه ، حتى ليقول مخاطباً نفسه :

رأيتك تمشي في المساخر شاعراً
وتأجك محطومٌ عليك مكَّمد
ففيم أزغتَ النفس عن نهج قدسها
فصارت مغارا سافلا وهي معبد

فأبو شبكة لم يكن فاجرا ولا عاهرا حين صور لنا العهر ، وإنما كان
مؤمننا يجرى الإيمان في أعماقه ، وغاية ما في الأمر أنه أراد أن يصور لنا
الفجر ، فصبَّ جام غضبه على المرأة ، وتحول إليها يضربها بهذه السياط ،
يريد أن يبرِّئها من غوايتها وينقِّسها من شهوتها ، ودخل معها « في هيكل
الشهوات » قصيدة أخرى له ، فأنشد :

أخاف في الليل من طيفٍ يسيل على

موجات عينيك حينما ثم يغتربُ

طيفٌ من الشهوة الحمراء تغزله نحر الليالي وفي أعماقه العطبُ

ووجهك الشاحب الجذاب ترهني ألوانه يتشهى فوقها اللهب

ما زلت تغتصين الليل في جُهدٍ

حتى تجمد في أجفانك التعب

وما السواد الذي في محجريك بكدا

إلا بقايا من الأحشاء تَغْتَصِبُ

وهو هنا يخاف من الشهوة التي تنشرها حولها ، وتجعل كل من يلتقي بها

يقع في شباكها . وهو هادئ النفس ثابت الجأش ، ولذلك لا يشور عليها ،

بل يكلمها بصوت منخفض :

وَحَقَّ طِفْلُكَ لَمْ أَشْمِتْ بِامْرَأَةٍ زَلَّتْ بِهَا قَدَمٌ أَوْ غَرَّهَا ذَهَبٌ

فَرُبَّ أَتَى يَخُونُ الْبُؤْسَ هَيْبَتَهَا وَالْبُؤْسُ أَعْمَى فَتَعْنِيَا ثُمَّ تَنْقَلِبُ

لِي مَهْجَةٍ كَدُمُوعِ الْفَجْرِ ، صَافِيَةٌ نَقَاوَتِي ، وَالتَّقَى أُمَّتٌ لَهَا وَأَبُ

لِي ذِكْرِيَاتٍ كَأَخْلَاقِي تَوَدُّ بَنِي فَلَا يَخَالُجُنِي رَوْغٌ وَلَا كَذِبٌ

أَتَقَى لِي الْأَمْسُ مِنْ غُلُوءِ عَقْفَتِهَا وَلَمْ يَزَلْ فِي دَمِي مِنْ رُوحِهَا نَسَبٌ

وَحَقَّ رُوحُكَ يَا غُلُوءًا وَلَوْ غَدَرْتُ بِي أَلْيَالِي وَأَصَمَّتْ قَلْبِي النَّشُوبُ

إِنْ كُنْتُ فِي سَكْرَةٍ أَوْ كُنْتُ فِي دَعْرِ وَمَرَّ طَيْفُكَ مَرَّ الطَّهْرِ وَالْأَدَبِ

فهو يذكر في هيكل الشهوات بجانب صاحبه الشريرة الخبيثة غلواء القيمة
البريئة ، كأنه يريد أن يردّها عن طريق الغواية إلى طريق الرشاد . ويتحدث
عن نقائه وتمامه ، وأن الشيطان قد يغويه ، فيكون من الشر على جُرْف
هار ، فتمتد إليه يد ملائكية تمنعه أن يسقط أو يضلّ سواء السبيل :
قد أشرب الخمر لكن لا أدنّسها

وأقرب الإثم لكن لست أرتكب

٣

ولعل فيما سبق ما يدل أوضح الدلالة على أن أبا شبكة لم يكن ينشد اللذة
الجسدية الصاخبة ، فهو ناغم عليها مزدر لها ، وهو من أجل ذلك يصورها في
المرأة على أنها لعنة القدر المشؤومة . وما يزال يحمل عليها بسياط من
شعره ، يريد لها أن تعيش دائماً في نور الفضيلة ، وأن لا تغيم حياتها أو تظهر
فيها سحابة الرذيلة ، فتسقط في ظلام لا نهاية له .

والقصائد السابقة ليست إلا مواقف مختلفة للشهوة الجسدية عند المرأة ،
وهي مواقف أراد بها أن يرسم هذه الشهوة وأن يحدث لها حدودا
وأبعادا . وفي أثناء إقامته هذه الحدود والأبعاد أقام كل ما استطاع من أعلام
سوداء تنذر الرجال بأوخم العواقب إن هم اقتربوا من هذه الهاوية .

فأبو شبكة يصور الجشع الحسى عند المرأة في صور بشعة منكرة ، ولذلك
يكون من الخطأ أن يظن ناقد أن قراءته للأدب الغربي وخاصة لبودلير هي التي
هدته إلى صنع هذا الديوان وهذه الأشعار ، ففرق بعيد بين الشاعرين وبين هذا
الديوان وديوان بودلير « أزهار الشر » . فتلك الأزهار نبتت وازدهرت
في تربة طبيعية ، تربة كلها انحرافات نفسية ، ومن هنا تكون معبرة عن
صاحبها مصورة لتحلّله من القيم الخلقية .

أما أفاعى الفردوس فنشأت في الخارج وجاء شاعر يصور سموها

وما تنفثه في البشر ، وهو تصوير شخص لا يقرها ولا يؤمن بها ، بل إنه ليرمى لها بالتعاون مبدئيا شرورها وآثامها وخطر ما تلفظ من أفواهها . وهو ليس مفعلا بهذه السموم ولا محموم ، وهو لذلك لا يهدى بها ، بل يريد لصاحبها أن تقف عند حدها ، وأن تعود إلى فردوسها عفيفة طاهرة نقية .

وما يزال يوقظ فيها الفضيلة ويفتح عينها على حقيقتها ، متابعا لها في أوضاع مختلفة ، ومستعمينا في رسمها على خياله ، وقد يعتمد إلى نماذج وضعت فعلا ، فينظمها شعرا من جديد . وأكبر نموذجين رأى فيهما طلبته مجسمة هما : قصة لوط وابنتيه . وقصة شمشون ودليلة ، هاتان القصتان اللتان روتهما التوراة ، وتحولتا إلى عمل فني عند كثير من الشعراء على نحو ما هو معروف عن الفردى فيني في غضب شمشون ، وأيضاً قد دخلتا في التمثيل الحديث .

وكانت قصة لوط أول ما تناول ، ومعروف أنه بعد أن خُسِفَ بقومه صعد مع ابنتيه في مغارة ، وطال انتظارهما معه للزوج ، فعمدت كبراهما إلى إثناء للخمر سقته منه ، واضطجعت معه ، وحملت منه بغلام ، وصنعت الصغرى صنيعة . هذه القصة حوّلها أبو شبكة إلى شعر في قصيدته « سدوم » أرض لوط وابنتيه ، وهو يفتتحها بقوله مخاطبا بنت لوط ، ولعلها فتاته الكبرى :

مغناك ملتهبٌ وكأسك مُشرَّعة

فاسقي أباك الخمر واضطجعي معه

لم تُبق في شفّتك لذاتُ الدِّما ما تذكرين به حبيبَ الموضع

قومي ادخلي يا بنت لوط على الخنا وازني فإن أباك مهَّد مضجعه

إن ترجعي دمك الشهيَّ لنبعه كم جدول في الأرض راجع منبعه

لا تعبري بعقاب ربك إنه جرثومة من نارك المتدفقه

في صدرك المحموم كبريتٌ إذا لعبت به الشهوات فجراً ضلعه

في صدرك الدامي مناجمٌ للخنا أورثتها نار الذراري المزمعه

فبكل صتقع من ضلوعك قسمة خلع^٣ على لهب الشباب موزع^٤
ويتحول إلى «سدوم»، نفسها ويصف ما تنسّمته قدما، من سحر الفردوس
وطيوب السماء ، وكيف كانت خضراء طاهرة الغراس وأدعة آمنة ، فكفرت
بأنعم ربها ، فجعل عاليها سافلها ، وإنه ليسترسل في خطابها :

ماذا فعلت سدوم^٥ أين جواذب^٦ كانت على تلك الخدور مجمعه
فيم استحال لبانك النامي إلى خمر^٧ بكاسات الفجور مشعشه
ذوبت خمر^٨ لا ليصبح طاهرا لكن ايستهوى النفوس فتجرعه
وجعلت غرغرة الأفاعى كأسه ليزوق منها كل قلب مصرعه
سكرت^٩ بك الدنيا سدوم ! فكلها زمر^{١٠} على طرق الحياة متعته

وأثرت^{١١} حنجرة الفجور فأطلقت

محمسا^{١٢} على نغم الجحيم موقعه
أغنية^{١٣} حمراء أنشدها الخنا مرقا^{١٤} على أوتارك المتقطعه
أسدوم ! هذا العصر ان تتحجى فبوجه أملك ما برحت مقنعه
كانت منكورة كوجهك عندما هبت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراء الزنا بحضارة ثكلى مشوهة الوجوه مفجعه
بؤر^{١٥} مسترة الفساد بخدعة^{١٦} نكراء^{١٧} بالخز الشهي^{١٨} مرقعه

ولا بأس أن تكون خمر سدوم دنسة ، وأن تكون كمئوسها من غرغرة
الأفاعى ، حتى تكون خمرًا سامة قاتلة ، وأن تنهل منها الدنيا وطوائف مختلفة
من الناس ، وأن ترتل لهم أو تنشد لهم أثناء ذلك أغنية آثمة ، توقمها على
أوتارها المتقطعة . لا بأس بذلك كله ، ولكن البأس كل البأس في أنه تحول
ساخطا على العصر كله وحضارته ، فرماه من حالى بقوسه ، وذهب يسب^{١٩}
ويلعن ، وأظلمت المدينة الحديثة في عينيه ، فلم ير فيها إلا بؤرا للفساد، وحانات
للدعارة . ولو تأننى لعرف أن هذه المدينة وتلك الحضارة فيها الخير والشر

واللذة والشقاء والسعادة والجحيم والنعيم . وهذا ما يجعلنا نذنبه بالواعظ ،
فهو يشبه هؤلاء الوعاظ الذين يعطوننا فيصورون لنا أننا نعيش في دار تعاسة ،
وأن البؤس يحيط بنا من كل جانب ، وأن حضارتنا متداعية ، وتوشك أن
تسقط لما بها من انحلال وفوضى خلقه ، وأسلحة دمار مختلفة تحملها في
جعبتها ، بل في صدرها .

والحضارة بخير ، وليس بصحيح أن الفساد قد عم ، وأيضاً ليس بصحيح
أن الدعارة قد انتصرت على الطهارة ، وأنها وطّنتها بقدمها وامتهنتها ، وسدّدت
سهامها إلى قلبها ، وشربت من دمائها . ليس ذلك كله بصحيح ، فالطهارة توجد
بجانب الدعارة ، والفضيلة توجد بجانب الرذيلة ، والملائكة تجري في دماء
الناس كما تجري الشياطين ، ولكن أبا شبكة متشائم متطير أحداً ما يكون
النشأ والتطير ، وكأنه يحس أن الإنسانية أصبحت طريدة الشهوة الجسدية ،
فهو يجمع نفسه جمعاً يريد أن يصرعها قبل أن تصرع الناس وأن يقتلها قتلاً ،
وإن لم يستطع فليضع في طريقها أشواكاً وصوراً قبيحة مشوّهة ، يقول في
نفس القصيدة :

أبغى هذا العصر خمرِكِ فاعرفي	واسقى ذراري الورى واستسلمي
وبمضجع الغرباء نامى حقبة	ثم اعدلى عنه لآخر وارتمى
وتمرغى ما شئت في حمى البلى	حتى يحفّ بك الرضاع وتهرمي
حتى تضاجعك الأفاعى في الدجى	ويصير حسنك مخدعاً للأرقم
حتى يفور الدود منك وينثني	يتمصّ جيفة عرضك المتهضم
حتى يدب الموت فيك وتمحى	ذرية المهّد الأثيم المجرم

وهذا ليس وصفاً للهب الشهوة المشتعلة في جسد البغى فحسب ، وإنما هو
أيضاً هجاء وبيان واعظ لمصيرها وما ينتظرها من شقاء ، فإنها ستتحول مع

الزمن إلى جيفة منتهكة ، وما يزال هذا شأنها حتى يصرعها الموت ويقضى على الحياة وسمومها .

ونراه يعود ثانية إلى تصوير هذا الغضب على البغى وما تتمرغ فيه من الشهوات في قصيدته « شمشون » وهو رجل من بنى إسرائيل منحه الله قوة هائلة كانت مصدر رعب وفزع للفلسطينيين ، واتصادف أن تعلق قلبه بامرأة بغي منهم ، فتزوجها . وحينئذ أغواها قومها أن تعرف سرَّ قوته ، حتى يتغلبوا عليه ، بل حتى يذيقوه بأسهم ونكالهم ، وما زالت به حتى أفضى إليها بأن سرَّ قوته في شعره ، فإذا قُصَّ غاضت قوته كما يغيض الماء من البئر ، وتواطأت معهم ، وهو نائم ، فجذوا شعره وساقوه أمامهم كالشاة تساق للذبح ، ووضعوه في السجن ، وانتظروا أياما ، حتى يحاكموه ، فأخذ شعره ينمو من جديد . واجتمع القضاة وجرى به في الأغلال ، وأطلقت زوجته دليلا ، ووقفت مع الجمهور المحتشد تنتظر النتيجة . وراها ورأى قومها وما جمعوا له فدعا الله أن تعود إليه قوته ، وعادت إليه في لمح البصر ، فأمسك بعمودين كانا بجانبه ، وهزَّهما كعمودين ، فتزلزلت الدار بمن فيها ، وخرَّت عليهم جميعا ولم يستطع أحد منهم خلاصا ولا فرارا . وقرأ أبو شبكة ذلك في التوراة فتحول يقول في قصيدته شمشون مخاطباً دليلا :

مَلِّقِيهِ بِحُسْنِكَ الْمَاجُورِ وادفعيه لانتقام الكبيرِ
إِنْ فِي الْحُسْنِ يَا دَلِيلَةَ أَفْعَى كَمْ سَمِعْنَا كَفَّيْحَهَا فِي سَرِيرِ
أَسْكَرَتْ خُدْعَةَ الْجَمَالِ هَرْقَلًا قَبْلَ شَمْشُونِ بِالْهَوَى الشَّرِيرِ
وَالْبَصِيرُ الْبَصِيرُ يُخْدَعُ بِالْحُسْنِ وَيَنْقَادُ كَالضَّرِيرِ الضَّرِيرِ
مَلِّقِيهِ فَالْإِلِيلِ سَكْرَانٍ وَاهٍ يَتَلَوَّى فِي خَدْرِهِ الْمَسْجُورِ
وَنَسُورِ الْكُفُوفِ أَوْهَنْهَا الْحُبُّ فَهَانَتْ لَدَيْهِ كَالشَّحُورِ
وَعَنَا اللَّيْثُ لِلْبُوءَةِ كَالظَّبْيِ فَمَا فِيهِ شَهْوَةٌ لِلزَّيْرِ

ثم مضى يصف هذا الليث أرقل يصف شمشون وما اعتراه من نشوة
حبها وما غرق فيه من أحلام بلذته الجسدية ، وصور كيف كانت تخافه
الذئاب الفلسطينية ، وكيف كان يشعل غابته بعاصف ملتهب من قوته :

وإذا لبوةٌ مخدرةُ الحُسنِ تردَّت من كهفها المخدور
تنضح اللذةَ الشهيةَ منها خمرةً من جمالها المأثور
فتنث العبير في مخدع الليل فتشبهى حتى عروق الصخور
فتلاشى اللهب في سيد الغاب أمير المغاور المنصور
والعظيم العظيم تضعفه أنثى فينقاد كالحقير الحقير
ويتحول ثانية إلى دليلة يدعوها أن تملقه، حتى تستطيع أن ترمى الشباك
من حوله ، فلا تخطئه ، بل يقع صيئداً ثميناً لأعدائه :

ملّقيه في أشعة عينيك صباح الهوى وليل القبور
وعلى ثغرك الجليل ثمار حجب شهوة الردى في العصور
ملّقيه فبين يديك غامت هوة الموت في الفراش الوثير
هوة أطلعت جهنم منها شهوات تفجّرت في الصدور
ملّقيه في ملاغمك الحمر مساحيق معدن مصهور
يسرب السم من شفافتها الحرى إلى ملبس الردى في الثغور
وهو يصورها حية تتلظى الشهوة، بل يتلظى الموت ، بين نهديها وعلى
ثغرها ، حيث السموم الفاتكة التي تنفثها وتتعبدها . ويسترسل على لسان
شمشون :

خيّم الليل يا دليلة في الغاب وأغفسي حتى الشدّاء في الزهور
فانثقي فورة الحرارة من جسمي وغذّي قواك من إكسيري
أنت حسناء مثل جنّة عدن كورود النشارون ذات العطور

وكغفر الوعل الوديع وإن كُنتَ تناجين عقرباً في الضمير
لست زوجي بل أنت أنتى عقاب شرس في فؤادي المسحور
فاشتهي كل ليلة مخلي الداء مي على خز جسمك المخمور
حتى إذا انتهى أبو شبكة من حديث شمشون مع صاحبتة ، وما أخذت
تثيره من قروح الشرور في قلبه ذهب يصور محاكمة الفلاسطينيين له وما جمعوا
من شر . فهو لاء الكفرة الفجرة يدخلونه قاعة العقاب ويجمعون له الجماهير
لرؤية مصرعه ، وتظهر دليلة تثني وترقص رقصة الموت ، الذي يفتح فاه لها
وهي لا تدري أنها تُزَفُّ إليه . وتعلو أصوات الجناة بسبب شمشون ،
فيثور الغيظ بصدره ، ويحل الإله في روحه ، فيحطم أغلاله ، وينقض القاعة
على من فيها ، وهو يقول :

استقْطى يادعائم الكذب الجا نى وكوفى أسطورة للدهور
محقَّ الله فيَّ شرَّ ظلامى فاستخنىء في الحياة حكمة نورى
إن تكن جزّت الخيانة شعري في ضلالى فتقوّتى في شعورى
وهكذا انتصر النور على الظلام ، وحقّت اللعنة على الدّنس والإثم
والشهوة الجنسية الداعرة والخيانة الدنيئة الفاجرة .

وواضح أن أبا شبكة لم يصنع هذا النموذج للخيانة والإثم والدنس
ولا النموذج السابق له ، فقد وجدتهما في التوراة حاضرين أو مهيئين ،
فاستعارهما من هناك ، ليشبع بهما رغبته الفنية في تصوير الشهوة الجنسية
عند المرأة ، وكيف تحركها وتبعثها محتدمة في صدر الرجل ، فإذا هو عاجز
واهن لا يستطيع أن يقاوم ، فقد أصبح أعزل ، ولم يعد يمتلك أى سلاح ،
بل لقد أصبح مريضاً أو قل أصبح عبداً رقيقاً تملكه ، وتشده في يدها
بخيوط من الخيانة والدعارة والعار .

٤

لم يكن أبو شبكة إذن ممن يغرقون في نشوة اللذة الجسدية العاهرة ، إنما كان ممن تغيظهم هذه اللذة وتملأ قلوبهم حسرة على الإنسانية المعذبة . ولذلك ذهب يصفها بأكيا ، بل لاعنا ساخطا ، وإذا كان صورا احتدام حرارتها في دمه ، فإنما كان يصور فيه الجانب الشرير الذي خاطبته الديانات السماوية في الإنسان ، فهو يتخذ من نفسه رمزا لوقوع الناس في الخطيئة وانزلاقهم إليها .

ونحن لانمضي معه إلى أواخر هذا الديوان حتى نقرأ له قصيدته « الصلاة الحمراء » وهي تشبه أن تكون استغفارا لربه مما قدمت يداه وتوبة نصوحا عما أثمت فيه نفسه ، ونراه يقول في فاتحتها :

ربّاه عفوڪ إني كافرٌ جاني
جوّعتُ نفسي وأشبعْتُ الهوى الفاني
تبعْتُ في الناس أهواءَ محرّمة
وقلتُ للناس قولا عنه تنهاني
ولم أفق من جنون القلب في سبلي
إلا وقد محت الأهواءُ إيماني
رباه عفوك إني كافرٌ جاني

ويتحدث حديث التائب الذي يرى نفسه مثقلا بالذنوب الجسدية ، وكأنما أفاق من سكرته ، فوجد قدميه تخوضان في مستنقع الإثم والعهر ، فأمسك بنفسه ، وتوجه إلى ربه قائلا :

وطأت لي كنف الدنيا فقلت قني يا نفس في منهل اللذات وارثني
وغاب عني أنى عشبةً نبتت على جوانب إبريقٍ من الخزف

وما ل مذهب طبعى عن بجيته
على جوانب إبريق إذا نظرت
حتى تقلَّب في بُطْل وفي صلف
عين إلى عتقه انحطَّت على تكلف
نخارة ذات نين
مرت قرون عليها
قديمة كالزمان
خال لون الدهان
ومهد الثَّن فيها
مسارب الديدان

وما زال يعرض علينا هذه الحياة أو الطينة السوداء من الشهوات التي
نبئت فيها النفس الإنسانية — كما يقول — من عهد قايين أو قبل قايين .
مستعرضا جذوتها التي اضطربت نيرانها في مقلتي نيرون وغير نيرون . ثم
يتوجه ثانية إلى ربه :

ترى مشيئتك العليا تناديني
رباه ! هل ينتهى حلمي ببارقة
بشورة النار في تلك البراكين
من اللهب ويخبو الطين في الطين
بجمرة السخط في أيدي الشياطين
فلا تجيب وتلوى لا تنجيني
كأن شهوة قلبي عنك تغني
بحث عنك وكاد العار يخفي
وقلت : تطلبني بين المساكين
تكفير عن تيهاني

إلى ذنوبِ جسام
وقلت للقلب : أطلق
طيف الإله بعيد
وقيل يوم عصيب
تنفذ النار فيه
فرحت أسأل نفسي لا
كثيرة الألوان
في الموبقات عنائي
وعينه لا تراني
ينقض قبل الألوان
والحكم للديان
دفاع عن كُفرائي

فلم أجد من يُسحى عني سوى مهتاني

رباه عفوك إني كافر جاني

وإنما نقلنا هذا الشعر كله لندل على أن هذه القصيدة ليست أكثر من اعتراف بالذنب ، بالضبط كهذا الاعتراف الذي يقدمه المسيحى المتدين لقسيسه ، يطلب العفو والمغفرة . فهو يتطهر من إثمه عن طريق اعترافه بخطيئته ، ويريد أن يتناول القربان .

وينتقل بنا أبو شبكة من هذه القصيدة إلى قصيدة أخرى سماها « الدينونة » وهى تتفجر من نفس هذا الينبوع الروحى فى داخله ، ينبوع الإيمان بربه والخوف من عذابه وجحيمه ، ونراه يتبرأ فيها من أقواله التى قد تتم عن شهوة ضارية فيه ، بل إنه يتحول إلى قدّيس طاهر ، إذ زالت عنه قشرة الشهوة المصطنعة وطلاؤها الكاذب ، وإنه لينحى إبليس لا عن صدره ولا عن كفه ، بل عن طريقه :

حوّل خيالك عني ولا تخيم عليّ —

فليس أهلت منى ولا اللظى من يدَيَا

لم أغش فى النفس مأثم ولم أنادم رجالك

إبليس ليست جهنم دارى فحوّل خيالك

قيثارتى لم ألتخطها بأقذار على طوافى بها فى بؤرة العار

ثم يتحدث عن المرأة الشريرة ويطلب إلى إبليس أن يأخذها إليه ، ويدعو عليها بل يدعو على كل أثى أن لا تحمل قذارة فى بطنها ! . ويصف الشاعر الذى تستعر الشهوة فى قلبه ، فيتحدث عن محبوباته من بغايا المواقير المنصوبة ، ويسأل إبليس أن يأخذها إليه ، ويدعو عليه أن يكون عقيماً . ويستترسل فى الكلام عن شياطين الإنس ممن يغوون النساء أو ممن يظلمون الناس ، ويطلب إلى إبليس أن يأخذهم ، ويدعو أن لا ينسلوا فى الأرض

حتى تستأصل شأفتهم ، ويستعرض شياطين آخرين ، وتمر به مواكب
أشباحهم إلى سقَر ، وبئس المستقر ، وهو أثناء ذلك يردد نداءه لإبليس :
حوّل خيالك عنى .

وأظن أنه قد اتضحت لنا حقيقة أى شبكة ، وأنه لم يكن من شعراء
اللذات الصاخبة والنزوات الجسدية ، فمأ جاء على لسانه من ذلك إنما هو
قول شاعر ، يقول ما لا يفعل ، وينظم ما لا يعتقد ، ويعنى بما لا يحس
فى نفسه منه أثرا .

ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الاتجاه الجسدى ؟ هناك احتمالات مختلفة ،
منها أنه أراد أن يحدد فى شعره ، ورأى كثيرين ممن حوله يتحدثون عن
شعراء الشهوة الحمراء مثل بودلير وأبى نواس ، فأحب أن يحاريهم ، وإن
كان قد أخطأ طريقهم .

وربما كان الدافع إلى هذا الديوان أو هذا الشعر عقدة نفسية سببت كتبنا
شديداً عنده ، وهى عقدة طبعاً عَقَدَتها فى قلبه امرأة ، فأحدثت فيه شيئاً
من الاختلال النفسى ، ظهر فى هذا النغم الشائر على الغرائز الجنسية ،
واللذات الحسية .

وقد يكون الدافع إلى هذا ضرباً من التدين العميق جعله يقشعر من
هول الخطيئة الجسدية ، بل جعله يحس الشر كل الشر فى المرأة ، فحمل عليها
هذه الحملات المنكرة فى مرارة وغضب ، وهى حملات يتحول فيها إلى ما يشبه
قديساً ، بل إلى أنى أو من بأنه كان يرقد فى صدره قديس فعلاً . وإن من يقرأ
دواوينه الأخرى من مثل « نداء القلب » و « إلى الأبد » لا يشك فى أنه كان
قديساً حقاً ، فشعره كله تراتيل وأناشيد دينية ، وما « أفاعى الفردوس »
إلا البخور الذى يحترق فى أثناء صلواته وقرابينه وتراتيله .